18 الصـادق الكـذوب

ما برحت الأيام تؤكد أن ضخامة حجم معطيات التنظيم الحركي التـي جنتها الدعوة الإسلامية الحديثة هي أكبر مما صورته تخمينات رعيل الـدعاة الأول.

عرف ذاك الرعيل قابلية التنظيم الذي هـم بـصدد إنـشائه عـلى تجميـع الجهود ونقل العمل من أطواره العفوية وارتباطه بردود الفعل الساذجة إلى تخطيط يوضح تفاضـل الحاجـات ، ويكـشف المـصلحة الكامنـة في تجـاوز المفضول منها في سبيل إسراعٍ في الوصول إلى هدف أهم. ولم يكن ما سـببته المحن المتلاحقة من تأخر في الوصول إلى الغاية النهائية ليثلم صورًا متعـددة لأكثر من نجاح حققته الدعوة في الوصول إلى أهداف مرحلية بارزة.

ومع ذلك، فإن هذا الانتقال إلى الانتظام الحركي، شأنه شأن كـل خـير، قد جاء بفوائد أخرى ثمينة لعلها لم تخطر على بال بعض الرواد الذين بدءوه .

مصفاة الرجال

وأجلى اتضاح حاضر للفوائد التي لم تكن مرتقبة أول مرة يظهر فيما قـام به العمـل الحركـي مـن اسـتخلاص الـصالحين فحـسب مـن بـين جمهـرة المتصدين للنشاطات الإسلامية.

المتصدون كثرة كثيرة، ولكن مراتب نياتهم وهممهم ووعـيهم متعـددة، حتى أن بعضهم لينزل إلى مستوى هابط يولد الضرر، من بـين مـدخول في نيته ؛ له إلى المنفعة الشخصية قدم ممدودة، وبـارد في همتـه يتـصدر في وقـت

احتدام فيغفو ويسوف، أو قليل ذكاء لا ينظر ما حوله ولا له في معرفة الواقع نصيب.

وحالة التسيب والتفرد واستقلال شخصيات هؤلاء المتصدين لا يمكنها أن تقدم أبدًا وسيلة للتمييز الضروري بين هذه المستويات المختلفة، إذ التمييز ليس هو إلا نتيجة لممارسة وزن الأشخاص وأعمالهم بميزان معين ونموذج محدد موصوف، وهذا التعيين والتحديد لا يتصور حصوله إلا من جماعة تتواطأ عليه مواطأة اقتناعية من لدن بعض أفرادها، تكتمل بمواطأة أخرى تفويضية يتنازل فيها البعض الآخر عن اجتهادهم المخالف ويتعهدون بالعمل وفق اجتهاد الفئة الأولى وإن قلت، حسبما يكون عليه النظام الذي ارتضوه لتحديد العلاقات ، بينهم وتمثل كل خطة جماعية في حقيقتها مجموعة هذه المواطآت.

وبذلك تصبح هذه الموازين المتفق عليها، المسماة بالخطة أداة تمييز بين المتصدين للعمل ، من وافقها وكانت له القدرة على تنفيذ جزء منها حظي بوصف الصلاح ، ومن خالفها، أو لم يستطع المشاركة في تنفيذ شيء منها نُحِّيَ إلى جانب إن لم يستقم أمره بعد محاولة تربوية وتدريبية معه.

فلولا الانتظام الحركي لما كانت هذه الخطة، ولولا الخطة لما كانت تنقية المتصدين، ولظلت جمهرتهم متناقضة دومًا، وفي هذا ما يشير إلى أن ظاهرة الافتتان إنما هي ظاهرة طبيعية في الحركات، بل ما يشير إلى أنها ضرورة لازمة، لما فيها من تنقية مزيج الرجال المتباين النيات والقابليات والاجتهادات.

وكاد الشاعر القديم أن يقترب من هذه الحقيقة لما مدح صاحبه فوصفه بأنه :

* محض إذا مزج الرجال، مهذب *

إذ ليس من الممكن استمرار التباين إذا مزج الرجال، بل لابد من تمحض المهذب الصالح مع أمثاله وظهورهم دون ما هنالك في المزيج من كدر وشوائب وغثاء.

أفرأيت في الفيزياء كيف تعمل القوة المركزية عند حركة الدوران بمزيج ما على فصل مكوناته حسب كثافاتها؟ فكذلك قوة الخطة الصادرة من مركز التجمع، تفصل من خلال دوران دولاب العمل ومن خلال التحرك اليومي الهادف مزيج الرجال حسب كثافاتهم النوعية، فمنهم الثقيل الراسخ، ومنهم الخفيف الطافي، فطرة الله تعالى التي خلق الناس عليها، كان ذلك قدرًا مقدورًا.

ولكن القدر يصارع بالقدر، والأسباب قريبة ميسورة، ولذلك كانت التربية الرفيقة، والنذارة، من الواجبات المفروضة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيَّ عن بينة.

وأنوار الفطنة الماضية لم تأت إلا في هذا المساق التربوي، الذي يمد صاحب بذرة الحياة بحيوية نماء ورباء.

وفي نفس المساق يرتفع على سارية التربية التحذيرية:

النور العشرون، واصفا جمال: تعليق التضحية على أمر القادة

فإن مبادرة الداعية إلى التضحية بروحه، بلا استئذان الأمير، مهدورة القيمة عند الفقهاء، مجردة من الفضائل، وربما كانت إثمًا إذا نتج عنها توريط الدعوة بما لم تحسب له حسابًا، وتكون عندئذ فتنة كبقية الفتن.

فقلة إدراك بعض متحمسة الدعاة لأصول العمل، وجهلهم بالواقع الذي يحط بهم، يؤدي بهم أحيانًا إلى فهم التأني والتربية المرحلية أو الحذر في الانتقاء على أنها بطء قيادي وخوف وإحجام عن الإقدام، فيخرجون إلى تهورات ومجازفات يؤكد النظر التحليلي فشلها ابتداء، وينفون معنى الافتتان عنهم، لما هم فيه من تعريض أنفسهم إلى مخاطر قد تصل إلى بذل الروح.

وإنما هو ظن بعيد توهموه، ولو أرادوا مصلحة الدعوة خالصة من دون موافقة الخفي من شهوات أنفسهم لأعدوا لعملهم عدته الاستشارية، ولحرصوا على انتماءاته الخططية، ولكنهم قوم يستعجلون.

ولقد سئل الفقيه التابعي الجليل نافع المدني رحمه الله، مولى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ووارث علمه، عن تضحية لا يحركها أمر قائد ولا توجبها خطة، فقيل له:

(هل يحمل الرجل إذا كان في الكتيبة بغير إذن إمامه؟

فقال: لا يحمل على الكتيبة إلا بإذن إمامه) [1].

وهذا جواب صريح: أن المسلم المنتمي إلى كتيبة إسلامية لا يهجم على كتيبة العدو إلا بإذن قائدها.

وظل هذا الفقه يحكم التضحيات، وينظم صرفها قرونًا طويلة، حتى أخذه ابن قدامة الحنبلي، أحد أعلام الفقه المقارن، فقال:

(لا يخرجون إلا بإذن الأمير، لأن أمر الحرب موكل إليه، وهو أعلم بكثرة العدو وقلتهم ومكامن العدو وكيدهم، فينبغي أن يرجع إلى رأيه، لأنه أحوط للمسلمين) [2].

---

(1) مسند الإمام أحمد، حديث رقم ٤٨٧٣.

(2) المغني ٨/ ٣٦٤.

فإذا كان هذا هو الأصل، فمن باب أولى أن يمتنع الـذي هفـا أول مـرة واستعجل وأخطأ فصدر له الأمر بالامتناع، فإنه يظل في اسـتثناء، حتـى أن الأمر اللاحق الذي يستنفر الجميع لا يـشمله، إلا أن يـأذن لـه القائـد إذنـا خاصا يلغي منعه الأول، فقد:

(سئل الإمام أحمد عن الإمام إذا غضب على الرجل فقال: اخرج، عليك ألا تصحبني. فنادى بالنفير، هل يكون إذنا له؟

قال: لا، إنما قصد له وحده، فلا يصحبه حتى يأذن له) [1].

فلا يباح للمطرود من صف الجماعة، ولا لعمـوم الـدعاة، أن يتحركـوا وفق اجتهادهم أبدًا، لشمول الخطر الناجم عن أخطائهم المحتملـة وتعديـه إلى كل المسلمين، وكم من مشكلات أتت من قبل صـاحب هـوى، غـوى، فطرد، فأراد التعويض من طريق يظنه قصيرًا، ففـشل، فأتعـب النـاس مـن بعده .

إن البيعة توجب طاعة الأمير في كل خطوة.

(إلا أن يتعذر استئذانه، لمفاجأة عدوهم لهـم، فـلا يجـب اسـتئذانه، لأن المصلحة تتعين في قتالهم، والخروج إليهم لتعين الفساد في تركهم.

ولذلك لما أغار الكفار على لقاح النبي ﷺ فصادفهم سـلمة بـن الأكـوع خارجًا من المدينة تبعهم، فقاتلهم من غير إذن، فمدحه النبي ﷺ وقـال: خـير رجالتنا: سلمة بن الأكوع) [2].

فافهم أيها المتحمس، وانتظر، فإنما لك من أجر الرباط مثل الـذي تظنـه من أجر الزحف، وانظر كمينا نـصبوه للـسذج، يغـريهم ويمنـيهم برئاسـة زحف موهوم، وأعنهم على رؤيته بقبس من:

---

(1) المغني ٨/ ٣٦٤.

(2) المصدر السابق.

النور الحادي والعشرين، الذي يكشف أن :

قيادة الباطل مثلبة، كما أن جندية الحق منقبة

فقيادة الباطل ليست بشيء، ولا لها في العرف والإسلامي قيمة، وإنما هي مجردة من الفضائل، حتى أن نفس صاحب المروءة لتعافها فطرة، وتعتبر إيرادها موضوع مساومة وثمن تأييد من أكبر الإهانة.

وهذا النور أوقده قاضي البصرة المحدث الثقة عبيد الله بن الحسن العنبري المتوفى سنة ١٦٨هـ، فكأنه قد دعي إلى خروج عن الطاعة بتمنية من خلابات الرئاسة، فأبى وقال:

(لأن أكون ذنبا في الحق أحب إليَّ من أن أكون رأسا في الباطل) [1].

ومازالت البيعة تميز بين الاثنين هنا، تصف المطيع ومن بويع بالحق، وتضع ناكثها في صف المبطلين.

وإنما ديدن المسلم الأجر من رب العالمين، والأجر لا يأتيك إلا أن تتملق له بفرض ومندوب ومستحب ومكارم أخلاق، وللوفاء نسب مع كل هذه الدرجات، ولمحاسنه مرايا تعكس إشعاعاتهن جميعًا، فتجتمع الانعكاسات في بؤرة لتولد:

النور الثاني بعد العشرين، وعلى ضوئه نعرف أن :

أقوال الحق الصادقة لا تكفي لتزكية قائلها تزكية مطلقة

فقد يتكلم المبطل بكلام من الحق يريد به باطلا كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وربما يصدق الكاذب، ولكن المعول عليه سلوك القائل وتصرفه.

وكم من كلمة هي من الحق الذي لا شك فيه يوجب الورع السكوت

---

(1) تهذيب التهذيب ٧/ ٧.

عنها في وقت معين أو تجاه سامع معين، سدًّا للذريعة، أو ترجيًا لمصلحة أخرى تزاحمها، من تأليف قلوب، ومراعاة لمستوى الفهم، وغير ذلك.

وفي قصة أبي هريرة رضي الله عنه مع الشيطان السارق تأكيد لهذا المعنى الذي نقوله، من اعتبار سلوك القائل في الحكم عليه، فقد أخرج البخاري في مواضع من صحيحه بلفظ المتابعة غير الموصولة عن شيخه عثمان بن الهيثم بسند صحيح إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وكله بحفظ الطعام المجتمع من زكاة الفطر في رمضان، فأتاه سارق فجعل يحثو من الطعام، فأمسك به أبو هريرة، فاستدر عطفه، فأطلقه، ثم جاءه ثانية فأطلقه أيضًا، فلما جاءه في الليلة الثالثة قال أبو هريرة رضي الله عنه :

(لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ثم تعود:

قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها.

قال: أبو هريرة: قلت: ما هو؟

قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ...﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح.

قال أبو هريرة: فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: ما فعل أسيرك البارحة؟

قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله.

قال: ما هي؟

قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ...﴾، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح.

وكانوا أحرص شيء على الخير.

فقال النبي ﷺ:

أما أنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟

قال: لا.

قال: ذاك شيطان)[1].

قال ابن حجر:

(وقد وصله النسائي والإسماعيلي وأبو نعيم من طرق إلى عثمان المذكور)[2].

ففي هذه القصة مع طرافتها دليل واضح على أن صاحب الشر المبطل قد يتكلم ببعض ما هو حق ويتستر به ليصل إلى مراده، فيجب على الداعية المسلم المرتقي لمدارج الفضل أن لا ينخدع إذا أتته شياطين الإنس تريد أن تسرق ما معه من عمل صالح وتحثو منه في جعبتها الفارغة لقاء ثمن من الكلمات التي تدلل فيها تلك الشياطين على أن لها بعض الحق، بل يكون متيقظا ناظرًا لما تخفيه من أحوالها الباطلة، وشاعرًا بما تبنيه على ذلك الحق الجزئي من نتائج باطلة، فيمسك الداعية بها من معاصمها بقوة، ويسلمها إلى ولي الأمر، ليمنع شرها عن قافلة الخير، فتستمر في السير على توهجات:

---

(1) صحيح البخاري ٣/ ١٢٦ طبعة صبيح.

(2) فتح الباري ٥/ ٣٩٢ طبعة البابي.

النور الثالث بعد العشرين، الذي ينبهنا إلى أن: سوء الرؤساء دليل ضرر المجموعة

وهو نور قرشي أصيل، أوقده سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما خرج يوما إلى طرقات المدينة، فرأى مالكًا الأشتر وصحبه يحاصرون عثمان بن عفان رضي الله عنه يريدون قتله، فقال:

(والله، إن أمرًا هؤلاء رؤساؤه لأمر سوء) [1].

وهذا ميزان مهم غالبا ما ينساه الذين يتعاملون مع الجماعات، ولو فطن له المخلصون لما انخدع أحد منهم بفتنة مفتتن يرفع عقيرته ببعض الحق الذي يريد من ورائه الباطل، فإن كل حزب أو جماعة أو كتلة سياسية أو فكرية تصطبغ في كثير من سياساتها الاجتهادية بآراء قادتها حتى ولو وجد نظام معين ومفهوم مدون لتلك الجماعة، إذ لا يحصر الأساليب جميعا نظام، ولا يحيط بالمعاني كلها تدوين، ولابد أن يبقى للاجتهاد الدور الرئيس الأول.

كما أن روح التقليد عند الأتباع، المؤدية لاستيعاب الإملاء الذي يملى عليهم تضعهم في حالة انشداد للرؤساء، تتضاعف قوتها طرديا مع قابليات الرؤساء الفطرية، من ذكاء وشجاعة وقوة صبر على كثرة التحرك، ومع العوامل المساعدة لها، من تقدم في السن، أو قصة بطولة سابقة، أو نسب عريق، أو بلاغة لسان وقلم، إن لم يكن هناك شيء من التدليس وتسخير من يبث المدح لهم ، ومن أجل هذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه مقالته المشهورة : **(أخوف ما أخاف على أمتي من عالم باللسان جاهل بالقلب)**.

لكل ذلك لم يكن الفصل بين شخصيات قادة تجمع ما وبين تجمعهم كله سهلا ميسورًا وإن عدد له في الفكر بنودًا ودون لعلمه دستورًا، بل الصواب

---

(1) طبقات ابن سعد ٣/ ٧٢.

الذي ينبغي على المدعو لمناصرة جماعة ما أو دخولها أن ينظر الرؤساء، فإن وجد ثمة أسواء ومثالب ظاهرة أو يرويها الثقات عنهم توقف وتهيب وأخذ حذره، وأعرض عن كلام جميل يدور على ألسنتهم لعل الخدعة تقتضيه، كما اقتضت خدعة الصياد أن يقلد أصوات الطيور ويصفر بمثل صفيرها لتنزل وتحط على شباكه المنصوبة.

وقد يرد العكس على جماعة خير تنادت لصلاح تحت قيادة ثقات، مع أن انفرادها دون جماعة خير سبقتها يعد أمرًا مفضولا وليس فاضلا إن لم يكن لها مسوغ قوي يجيز تفردها، ولكن هذا العكس لا يرد أبدًا على جماعة فتنة، تناجت ونكثت بيعة وانحازت إلى جانب وقدمت بعض أهل الفضل لها صدورًا، إذ المقياس يختلف هنا، ولا تمحو فضائل متعددة هفوة النكث الواحدة، وغاية أمر الصدور أن نحكم عليهم بأنهم بسطاء سذج وقعوا في الخلابة فصاروا لا يصلحون كقدرات وإن لم يتعمدوا الإساءة.

* * *

19 انهيار الضرار

يروى أن عبدًا مهديا داعيا إلى الله تعالى نظر يوما إلى أصحابه من حوله، فأعجبه الذي هم فيه من جمال التعبد والإخاء.

ثم نظر أخرى، متأملا تقلب القلب، فأطرق، وبشعور مزيج من السرور والتخوف قال لهم:

(يا ملح الأرض لا تفسدوا، فإن الشيء إذا فسد لا يصلحه إلا الملح).

فكانت منه حكمة صادقة، تشهد حروفها أنها من كلام أهل التربية وممارسيها.

وكأنه ما من مصلح مربٍّ إلا وصى بها أصحابه مرارًا وحين موته.

فجراثيم التسمم، وبكتيريا العفونة، لا تنمو في بيئة ملحة ، وكذلك أهل الفساد، لا يستطيعون رفع رءوسهم في بيئة يكون فيها الناهون عن المنكر.

إنه تصوير لواقع القلة المؤمنة من دعاة الإسلام بين الكثرة اللاهية المسترسلة مع أمور دنياها.

بهم يصلح الله كل فساد اجتماعي، فيقومونه من بعد الاعوجاج. وهم الذخيرة للأمة ؛ يحفظون لها مصالحها كلما ضيعها شهواني ظلوم، فيرجعونها إلى مكانة العز التي تنبغي لها.

فإذا اعوج الدعاة أنفسهم، وضيعوا رابطة إخائهم، وألفوا بعض المنكر، فمن للأمة يصلحها؟ ومن للمجتمع يزكيه؟

لذلك بات النداء إلى التحابب وإيطاء الأكناف، ثم التواصي بإنكار

المنكر، ركنين مهمين في التربية الجماعية الإسلامية، يكفلان تمكن الدعاة من أداء دورهم الواجب في مصادمة الفساد.

فالإخاء: يحفظ المجموعة، ويمنع التسيب، ويكسب الإنكار فاعلية تأثيرية.

والتواصي: ينقل المجموعة إلى الشجاعة في المواجهة والصبر عليها، وبهذين الركنين التربويين تمكنت دعوة الإسلام الحديث من إنتاج (**جماعة إنكار متآلفة**) أحيت سمت إخاء إيماني انقطع لقرون طويلة، وطفقت تضرب في النهي عن الفساد الأمثال، فشدت قلب يوسف القرضاوي إليها، فراح يصف في سنة ١٣٧٠هـ حسن نماذجها:

أعطوا ضريبتهم للدين من دمهم ... والناس تزعم نصر الدين مجانًا

عاشوا على الحب أفواها وأفئدة ... باتوا على البؤس والنعماء إخوانًا

الله يعرفهم أنصار دعوته ... والناس تعرفهم للخير أعوانا[1]

هكذا، ليس غير.

أعوان خير، يقدمون ضريبة نصر الدين، على درب من الحب.

فلا عجب أن يكونوا الخط البارز في صورة الإسلام الحديثة.

ولا عجب أن يحرص كل ذي حرص على منع من يريد لهم انفراطًا يحرمهم القدرة على ممارسة الإنكار، ويضع في دربهم أحجار العثرات، فذاك سبب إيقادنا للأنوار.

غيرة على بهاء المنظر ونقاء الصورة من جانب، وكشفا للمتصدي الجريح الضعيف المتكلف لحشر نفسه في فجوات صفوف الصورة من جانب آخر.

---

(١) مجلة المباحث عدد ٣١.

فالأعمش تكثر في عينيه أشعة أنوار الفطنة، فتبهره، فيضع كفه على وجهه، ويطلب التواري، والأجهر يكون قريبا من النور وهو لا يبصره.

ولكن سليم العين يلتذ، وربما كان كمن ينظر من خلال عدسة تكبير.

أعمى وأعشى ثم ذو بصر وزرقاء اليمامة

سبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة

قدر وحظ لم يقسما للأعمش والأجهر أن يتمتعا بما سبق أن أوقده فقه الدعوة من أنوار.

أما الموفق فأهل لأن يزداد لذة، وأن نرتقي لأجله سارية أخرى، لنعلق عليها مصباح:

النور الرابع بعد العشرين، فيتألق بوميض: الحرص على نجاة النفس

فإن الإمارة أمر شديد، من لم يستطع الوفاء بلوازمها قد يتعرض يوم الحساب لنقاش دقيق، وكل إنسان خبير نفسه، ويفترض فيه أن يقدر تقديرًا صحيحًا قدرته الفطرية على قيادة قومه ومدى دخل الظروف المحيطة به وظروفه العائلية والمعاشية والصحية في أدائه لدوره، فمن ساق نفسه إلى رئاسة وهو يعلم أن في الجماعة أفضل منه وأمهر، وأنه سيسبب ضياع فوائد، ويعجز عن سد ثغرات محتملة فقد ظلم.

ولهذا خاطبك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، يسألك الرفق بنفسك من غد لا تدري عظيم غضب الله عليك فيه، فقال:

(نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها) [1].

إذ الإمارة تحتاج إلى إحصاء من أطرافها، ورعاية وحسن أداء، وأنها

(1) الفوائد لابن القيم/ ١٤٥.

خزي وندامة يوم القيامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها، ولا يصلح لها من كان على مثل ضعف أبي ذر رضي الله عنه ولو كان على مثل ما كان عليه من صدق اللسان وجمال العبادة.

وهذا المقدار هو من العلم الذي لم نر له في طلاب الرئاسة جاهلا، لكنهم يؤخذون ويفتق عليهم من باب التقليد والمحاكاة، وقول: ليس فلان أفضل مني . فإن أحدهم يرى التنافس في الرئاسة يشغل أقرانه، ويظل يرقب ما يشجر بينهم، حتى ينسى معاني علمه، ويتأثر بمنظر التنازع دون قول فقه الدعوة.

وإنما كان خبير الفتن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يتخوف من مثل هذا، ويعده باب ما بعده من الارتكاسات، فقال:

(إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون).

هذا من مجرد الرؤية والمراقبة، فكيف إن اجتمع معها ترغيب وتشجيع ووصف لذات وجدوها؟

لا شك أن مخالفة العلم ستكون أسرع، والاستجابة أكثر احتمالا.

ولذلك دعاك الزاهد يحيي بن معاذ إلى الاعتصام بميزان ثالث في هذا الموطن تميز به صدق الخطيب الذي يدعوك فجزم لك بأنه:

(لا ينصحك من خان نفسه).

فالمنازع في الرئاسة، الملحاح في نزاعه، قد ورط نفسه، وأضعف احتمالات نجاتها، وتلك خيانته لها، فكيف يرتاد لك الخير من بعد؟

فانظر ناصحك، وسائل قلبك: هل خان نفسه ثم أتاك، أم لا زال يكتال الحسنات؟

فإن كان ناصحًا لنفسه عرضت مفاد نصيحته على أنوار الفطنة لتؤيـدها أو تكشف سذاجتها. وإن كانت الأخرى أعرضت.

وإلا، فإن الزيغة الأولى منـك تجلـب ثانيـة رغـما عنـك، فإنهـا العقوبـة الربانية:

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥].

وسعيد بن جبير إمام التابعين ينذرك :

(إن من ثواب الحسنة الحسنة بعـدها، وإن مـن عقوبـة الـسيئة الـسيئة بعدها) [١].

فالزيغ ولود، كما أن الإحسان ولود ودود.

لابد من ذلك، حتى قال فقيه المدينة عروة بن الزبير بن العوام:

(إذا رأيت الرجل يعمل السيئة فاعلم أن لهـا عنـده أخـوات، وإذا رأيتـه يعمل الحسنة فاعلم أن لها عنده أخوات) [٢].

فتتوالى عثرات المصغي لخائن نفسه، حتى لقد رأينا في بعض الـبلاد رأي العين من طلب ذروة الرئاسة على قوم دعاة قد تراجع إلى الخلف بتدريج لما لم يحصل له مراده، فترك الأمر بالمعروف أول مرة، ثم ترك المسجد، ثم تـرك نفس الصلاة واكتفى بالجمعة، ثم ترك الجمعة، ثم أفطر رمضان، ثم أصبح يغيظ في نهار رمضان من يمر أمامـه مـن الـصائمين ينفـث الـدخان قـرب وجوههم.

أفغير العقوبة أحاطت به؟

---

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ١١.

(2) تهذيب التهذيب ٧/ ١٨٣.

وهذا ما يدعوك إلى أن تفقه بدايات الفتن المقبلة مـن النظـر إلى نهايـات الفتن السابقة، فإنه قل من نجا من تراجع بعد الافتتان.

ولذلك فإننا لا نجد أجمل من حرص الداعية على نجاة نفسه، وإلحاحـه في طلب:

النور الخامس بعد العشرين، المعين على:

تمييز الغايات الصدامية في مساجد الضرار

كما ميزها الذين سبقونا في الانتماء إلى هذه الـدعوة المباركـة وعـاصروا ذروة نشاطها قبل أن تمتحن ، ورأوا كيف يعمل أعداء الإسلام على تَـسقُّطِ أخبار المخالفين، فيدسوا إليهم من يؤزُّهم أزًّا زائدًا، ويعيب عليهم القعود عن الانتقام، ويحملهم على تجميع كل حانق في كيـان منـافس يرصـد نفـسه للمناوشة وتثبيط الجدد، ثم يتم اختيار اسم كبير ضـخم لكيـانهم يحـاولون من ورائه تحويل الانتباه إليه.

وإنما هي مساجد الضرار يعاد بناؤها، بهندسة جديدة ولون مبتكـر ، لهـا إلى مسجد الضرار الأول نسب، ومع تاريخه ارتباط.

ويسألون: كيف تكون لنا جرأة على هذا الاتهام ودعوة الإسلام ليـست حكرًا على أحد، بل لكل مسلم أن يتجمع ويعمل كيف يشاء؟

ولـسنا بحمـد الله للعمـل حـاكرين، ولكـن يبطـل عجـب المتـسائلين فحصهم لأطوار عمـل مـن ننـسبهم إلى الـضرار، إن كـان تـأملهم لواقـع المسلمين يحملهم على مصاولة حركـات الإلحـاد وأحـزاب العمالـة وتبليـغ معاني الإسلام إلى السائلين اللاهين، أم هم قد عافوا أولئك وحاموا حـول دعاة الإسلام ومناصريهم يصادمونهم ويثبطون، ويجادلونهم فيلهون؟

إن جماعة تدعي الإسلام، ثم تترك المجتمع الماجن والمنكر المستشري، والشباب الضائع، وتتجه إلى المصلين والملتفين حول دعاة الإسلام تزين لهم الانتساب إليها، وتلح في تهوين أمر الدعاة الآخرين، ورميهم بالاستبداد والافتقار إلى الوعي، لهي أحرى الجماعات باسم مسجد الضرار.

ومن ذا الذي في قلبه ذرة إيمان وألم على المصير الذي آل إليه أمر المسلمين ثم لا يفرح ويهش ويبش لأقوام يعالجون المرض ويستدركون الانفراط، وإن خالفوه في الاسم والأسلوب؟

ولكننا نعيب الصدام، وإلهاء العاملين، وندعو الذي لم يعجبه أسلوبنا واجتهادنا ويحاول العمل في جماعة أخرى إلى أن ينظر: أهي في تبشير وإنذار بمعاني الإسلام في الأوساط العامة وعلى اتصال بأفراد أهملهم الغير، أم تركت أولئك وأوساطهم والتفتت نحو مسلمين يعملون في مقاومة الفساد، تماريهم، وتحصي لمهم وتلبسه لباس الكبائر؟

فإن كان ديدنها الصدام توقف وأحجم وربأ بنفسه عن أن يشارك في إشغال السائرين، وإن وجد خيرًا نظر الأمر ثانية على أضواء أنوار الفطنة الأخرى، عسى أن يكون الخير مفضولا أو محفوفا بخطر سوء الرؤساء.

إننا نقولها صريحة: إن من الأهمية بمكان أن يعرف كل من يريد المساهمة في النشاط الإسلامي أن المسجد الضرار النفاقي الأول:

(ما يزال يتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين ؛ تتخذ في صورة نشاط ظاهرة للإسلام وباطنة لسحق الإسلام، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه! وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتتَّرس وراءها وهي ترمي هذا الدين! وتتخذ في صورة

تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير ولا خوف عليه ولا قلق. وتتخذ في صور شتى كثيرة)[1].

كذلك فإن من الخطورة بمكان أن يعطي المخلص أذنا صاغية منه لمن كان في مسجد ضرار ولم تشتهر له توبة حتى ، ولو انفرط عقد أصحابه وانهدم بنيانه وظن المخلص أنه سيتعامل مع فرد لا يستطيع الإضرار، فإن النفس تبقى موتورة خانقة غاضبة.

فيومها لما هدم الله الضرار الأول بأيدي المؤمنين بقيت ريبته في صدورهم، فقال الله تعالى بعد انهياره:

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٠].

وهي إشارة إلى طبيعة أصحاب كل ضرار، في كل زمان، بعدما يهدم الله بنيانهم.

فلقد انهار الجرف المنهار، (ولكن ركام البناء بقي في قلوب بُناته ؛ بقي فيها ريبة وشكًّا وقلقا وحيرة ، وسيبقى كذلك لا يدع تلك القلوب تطمئن أو تثبت أو تستقر. إلا أن تقطع وتسقط هي الأخرى من الصدور.

وأن صورة البناء المنهار لهي صورة الريبة والقلق وعدم الاستقرار.

تلك صورة مادية، وهذه صورة شعورية، وهما تتقابلان في الواقع البشري المتكرر في كل زمان ، فما يزال صاحب الكيد الخادع مزعزع

---

(1) في ظلال القرآن ١١/ ٣٥،٣٧.

العقيدة، حائر الوجدان، لا يطمئن ولا يستقر، وهو من انكشاف ستره في قلق دائم، وريبة لا طمأنينة معها ولا استقرار) [1].

ومثل هذا العنصر القلق ليس أهلا أن نلتمس عنده النظر العادل حتى نمنحه السمع المصغي، بل نتجاوزه، ونطلب الخير على شعاع.

النور السادس بعد العشرين اللامع بمعاني:

مضاعفة الحذر من فتن آخر الزمان

فنحن أقرب إلى الساعة مما كان عليه المسلمون قبل أربعة عشر قرنا حين نزل قول الله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[القمر:١] وهذه علامات تترى، وليس بآخرها، تطاول الحفاة العراة في البنيان، وتوسيد الأمر إلى غير أهله، ولفائف كأسنمة البخت المائلة فوق رءوس الكاسيات العاريات.

وفي الحديث الصحيح أنه:

(لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى) [2].

وبصرى قرب الجولان جنوب دمشق.

وقد تحدث مؤرخ المدينة السمهودي عن نار عظيمة التهبت من باطن الأرض وسالت أيامًا قرب حرة المدينة الشرقية سنة ٦٥٤هـ حتى جمدت حجارة سوداء، وكان نورها يشاهد من أطراف الحجاز، وشهد رعاة الإبل ببصرى أن إبلهم حصل لها التفات غريب لا يدرونه [3].

---

(1) المرجع السابق.

(2) صحيح مسلم ٨/ ١٨٠.

(3) رسائل في تاريخ المدينة، نشرها حمد الجاسر.

فإن لم تكن هذه النار هي المقصودة في الحديث فإن نارًا وشيكة الخروج بالحجاز ستصاحب اكتشاف حقول النفط فيها بعد العزم على التنقيب وازدياد احتمالات وجود النفط حاليا قد تكون هي النار التي ستمد لها أعناق الإبل ببصرى، والله أعلم.

وللمحدث الهندي صديق حسن خان كتاب (**الإذاعة لما كان وسيكون بين يدي الساعة**)، جمع فيه علاماتها، وقد أعيد طبعه.

وليس للمؤمن إلا أن يصدق ويوقن بقرب الساعة، وإن كان ذلك لا يغنيه عن الأخذ بالأسباب والعمل بظاهر الشرع، فإنه لا يدري ما بين العلامات وبين قيام الساعة من زمن ومدة.

والمهم الذي يجب أن يفطن له الداعية أثناء انتباهه لإحصاء علامات الساعة ما ذكره رسول الله ﷺ من قلة الإيمان واضمحلاله عند اقترابها، فيأخذ حذرًا مضاعفًا إزاء كل سبب تواترت عند المؤمنين كثرة تأديته إلى ذاك الاضمحلال.

ومراقبة تواريخ الفتن ومصائر المفتتنين يرينا ترديا كثيرًا ما سار فيه الخارج عن الجماعة، ووصل به أخيرًا إلى ترك الصلاة والتنصل من الالتزامات الإسلامية.

ولذلك وجب أن يجفل الداعية من اسم الفتنة، ويقشعر جلده من كل نداء عصيان لأوامر الجماعة وخطتها، ألا يسير في طريق ضمور والإيمان في ظرف مساعد من طبيعة آخر الزمان، حيث (**تكثر الفتن**) كما قال رسول الله ﷺ .

كيف لا والنفاق في آخر الزمان يعم الأقطار حتى يغزو نفس المدينة المنورة التي هي معقل الإيمان وداره؟

ففي الحديث الصحيح :

(إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها)[١].

ولكن مع ذلك فإن أهلها لا يستطيعون في آخر الزمان الثبات على إيمانهم، فيتركونها استكبارًا ونفاقًا وهي على أحسن ما تكون من وفرة الثمار والعمران، ويأبون أن يجاوروا رسول الله ﷺ أو أن يوصفوا بأنهم من سكنة المدينة، والعياذ بالله.

وقد ورد الخبر الصحيح بذلك في قول رسول الله ﷺ :

(يتركون المدينة على خير ما كانت، لا يغشاها إلا العواف. يريد: عوافي السباع والطير.

وآخر من يحشر: راعيان من مزينة يريدان المدينة، ينعقان بغنمهما، فيجدانها وحشًا، حتى إذا بلغا ثنية الوداع خروا على وجوههما)[٢].

وروى مالك عن ابن حماس عن عمه عن أبي هريرة رفعه: لتتركن المدينة على أحسن ما كانت، حتى يدخل الذئب فيعوي على بعض سواري المسجد أو على المنبر، قالوا: فلمن تكون ثمارها؟ قال: للعوافي: السباع والطير).

أخرجه معن بن عيسي في الموطأ عن مالك، ورواه جماعة من الثقات خارج الموطأ[٣].

وروى عمر بن شبة بإسناد صحيح عن عوف بن مالك قال: (دخل رسول الله المسجد، ثم نظر إلينا فقال: أما والله ليدعنها أهلها مذللة أربعين عامًا للعوافي)[٤].

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ٢٦.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ٢٦.

(٣) (٤) فتح الباري طبعة بولاق ٤/ ٧٧ .

وعمر هذا ثقة، وهو :

(عمر بن شبة بن عبيدة.. البصري، النحوي الأخباري نزل بغداد.

قال ابن أبي حاتم: كتبت عنه مع أبي وهو صدوق صاحب عربية وأدب.

وقال الدارقطني: ثقة.

وذكره ابن حبان في الثقات وقال: مستقيم الحديث)[1].

أفرأيت؟

أهناك أشنع من هذه الفتنة وأكثرها منها هولا؟

منبر رسول الله ﷺ يأتي الذئب فيعوي عليه! وسواري مسجد رسول الله ﷺ التي صلى عندها كبار الصحابة وأفذاذ الأعيان يعوي عندها الذئب!

فإذا كانت مثل هذه الفتنة العارمة تحدث في موطن الإيمان ولا يسلم منها مؤمنو المدينة، فكيف بمقدار الخطر الذي تفتحه علينا الفتن في غيرها من البلاد؟

إن الداعية يعتبر، ويدع الكثير مما يراه بعيدًا عن البأس خوفا أن يكون بابًا وذريعة توصله إلى ما به البأس.

ولفؤاد البصير رجفة مميزة عند ذكر هذه الأخبار، تلجئه ولابد إلى حذر مضاعف يحفظ به ثروة الأعمال الصالحة التي حازها من خلال نشاطه غاديا ورائحًا في مصالح الدعوة، ألا يبددها في صفقة غابنة، مع صرخة فاتنة.

* * *

(1) تهذيب التهذيب ٧/ ٤٦٠ .

20 دماء على المصحف

يرينا استقراء واقـع العمـل الإسـلامي وتاريخـه القريـب، في كثـير مـن البلاد، أن أي قوة مـن قـوى الحركـة الإسـلامية وتجمعاتهـا، حـين تنطلـق انطلاقا مبدؤه النية الخالصة لنيل رضا الله سبحانه، فإن (**شمولية الإسـلام**) تسم مفاهيم الحركة بسماتها، مقرونة باتجاه عملي لانتشال أكـبر عـدد ممكـن من الشباب من براثن الـضياع. وتظهـر هـذه الـشمولية ورغبـة الانتـشال واضحة في مفاهيم الجماعـة وشروطهـا، فـترى جناسـا بـديعا بـين أحكـام الإسلام كلها بارزة في تصرفات دعاتها وسلوكهم، لا تخطـئ عـين المعامـل لهم رؤية ما فيه من بيان وبلاغة تطبيقية، كـما تـرى خطابهـا للنـاس بـسيطًا بعيدًا عن التكلف والاجتهاد الغريـب بجعلـه مفهومـا لـدى الجميـع، مـع شرط متشدد في التجميع والتأمير يمنع احتمال الانحراف.

فالجماعة الصحيحة الاتجاه لا تعرف (**القصورية**)، ولا يفـضح مـستوى أعضائها التربوي قولهـا وادعاءهـا، بـل هـم يعظـون ويبـشرون بحكمـة، ويجعلون بينهم وبين البدعة سترًا، ويربأون بأنفسهم عن تجزئ يحصر قضية الإسلام في ثانويات يطغي الاهتمام بها على أصـول العقيـدة وعـلى مـا تعـم بإهماله البلوي على الأمة من الأحكام، مـثلما يربئـون بهـا عـن الاصـطلاح المبهم، والجدل في الفروع، إذ ليس عمل الدعوة محاورات فلاسفة أبدًا.

ولذلك كان لابد أن ترفع مثل هـذه الجماعـة أثنـاء مراحلهـا الأولى مـن خططها احتمال قبول من يخالف سمتها هذا بين صـفوفها، وأن تلغـي بتاتًـا رغبة التكـاثر بالأعـضاء، إذ إن الهـدف الـذي مـن أجلـه وجـدت الحركـة

الإسلامية أرفع من مجرد التكاثر وأسمى، ولا تحل أزمة المسلمين الحاضرة بكثرة المتجادلين في الجزئيات، فإن الناس تلفهم ظلمات متراكبة من البدع، أو الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض. كما أن دعاة الإسلام أنفسهم ربما لفتهم ظلمات الرياء والهوى ومحبة الرياسة، والحاجة ماسة إلى إيقاد أنوار إيمانية تجلي الظلام الذي سجى.

فليس دبيب الذر فوق الصفاة في الظلام بأخفى من رياء ولا شرك

فهما يتسربان بأخفى من مشية النمل فوق صخرة ملساء في ليلة ظلماء.

فأما الشرك الخفي فهو ما يقع فيه الناس اليوم من الاحتكام إلى غير ما أنزل الله تعالى جحودًا وتكبرًا.

وأما الرياء فهو ما يقع بسببه الخلاف بين دعاة الإسلام أحيانًا، فترتفع معه الأخوة ولا ينتهي حتى يقوم شاعرهم يعاتب ويوبخ:

أبعد الصفاء ومحض الإخاء بقيم الجفاء بنا يخطب؟

وقد كان مشربنا صافيا زمانًا، فهل كدر المشرب؟

وكل أحد يعلم أنه زلال لم يكدر، ولم تغيره الشوائب، فإسلامنا هو إسلامنا.

ودعوتنا هي دعوتنا.

وأساليبنا تزيدها تجارب الأيام صفاء.

ولكن النفوس هي التي تتكدر، فيتغير المذاق، ويصبح الحلو مرًّا.

والظلام يلف هذا الشارب المتكدر، مثلما يلف ذاك الكافر المتعثر، وإن اختلف اسوداده.

فمن أحسن قولا، وأوقد نورًا، فهو للـصواب قـد فعـل، ومـن خـالف وسار عكس الاتجاه ناديناه أن:

*** خل الطريق لمن يبني المنار به ***

لا لأننا نحتكره، أو نرى ضيقه، بل هو طريق فـسيح عـريض، ولم تجـد الأثرة لها فيه ثغرة لتدلف منها فتسده، ولا يقف التعنت خلف أبوابه ليمنـع ولوج مخطئ قد استبد به الحنين، وملك عليه التحذير مـن الـصفقة الغابنـة جوانب قلبه، فأطلق منـه لـسان الاعتـذار، وعـزم عـلى الأوبـة إلى مبـاهج الفطنة، ولكن لأن الشرع أعطانا حق إزالة أسباب الضرر التي توضـع عـبر طريقنا، وإنما نحن بناة منـارات هـدى، لـيس لـذي معاكـسة أن يزاحمنـا في طريق مهنتنا التي شغفناها حبًّا في هذه الحياة، وما من مخلـص إلا ومتاعـب الأمة تخاطبه أن يساعدنا ويشد أزرنا، أو يدعنا نوقد الأنوار، ونواصل رفـع القواعد من:

المنار السابع بعد العشرين، الناشر لإشعاع: الاتعاظ بالتاريخ

فإن التاريخ يكشف لنا عن دور اليهود في تجريح القيادات المـسلمة كلما رأوا نجاحها وفشل أسـاليبهم الأخـرى في محاربـة الإسـلام، بـل أصبح النيل من القـادة، ومحاولـة تحطـيم مكـانتهم المعنويـة في نفـوس المسلمين، هو الأسلوب المفضل عندهم.

إنه **(التماسك حول العقيدة القويمة والقيـادة الأمينـة هـو الـذي يتعـب اليهود وأعداء الجماعة المسلمة - في كل زمان- وهو الـذي يكلفهـم الجهـد والمشقة، ومن ثم تتجه جهودهم أولا لتحطيمه)**[1].

(1) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٢.

وتوضح الفتنة التي حدثت زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه هذا الدور والتخطيط اليهودي جليا، ودورانه حول محور واحد هو: إفساد طاعة الجنود لأمرائهم.

فقد كانت لعثمان رضي الله عنه اجتهادات في أمور بسيطة استغلها المغرضون في التشنيع عليه وإلباسها لبوس الإحداث في الدين، مثل إتمامه الصلاة في منى أيام موسم الحج، وحرق المصاحف التي تخالف مصحفه الذي دونه كبار قراء الصحابة بإشرافه، وإنهائه نفي الحكم بن أبي العاص ورده إلى المدينة بعد أن أبعده النبي ﷺ عنها ، وله خطبة أثبتها ابن العربي في كتابه **(العواصم من القواصم)** بين فيها صواب اجتهاداته هذه .

ولكن اليهود رصدوا هذا الاختلاف البسيط في الصف المسلم، فدسوا رجلا منهم تظاهر بالإسلام، اسمه عبد الله بن سبأ، ليطور الخلاف إلى فتنة عارمة.

يقول الطبري في تاريخ:

(كان عبد الله بن سبأ يهوديًّا من أهل صنعاء، أمه سوداء، فأسلم زمان عثمان، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر).

لكنه كان يتسقط خلال رحلته هذه كل سارق وقاطع طريق ومفسد نالته عقوبة من أحد الولاة فتوترت نفسه، ويواعدهم أن يكونوا بالمدينة أيام يكون الناس حجاجًا بمكة، لينقلبوا على عثمان والناس غافلون.

ووضع لهم خطة أوجزها بقوله لهم:

(انهضوا في هذا الأمر، فحركوه، وابدءوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر)[1].

---

(1) تاريخ الطبري، الطبعة الأولى، القسم ٦/ ٢٩٤٢، ٣٠١٨، ٣٠٢٠.

هكذا، باسم الأمر بالمعروف يكون الهدم.

إنها الخطة الدائمة لكل ذي هوى.

وباسم مصلحة الدعوة تتطور الخلافات اليوم إلى فتن.

ثم كان من ابن سبأ أن:

(بث دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر: إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء) [1].

وبهذا فسدت النفوس، وحان يوم انقلابهم، فإذا بهم حول دار عثمان يحاصرونها، ثم دخلوا عليه وانفردوا به ليأتوا بالعجائب!!

(فضربه الغافقي بحديدة معه، وضرب المصحف برجله، فاستدار المصحف واستقر بين يديه، وسألت عليه الدماء) [2].

(فسال الدم على المصحف وهم في ذلك يهابون في قتله، وكان كبيرًا، وغشي عليه، ودخل آخرون، فلما رأوه مغشيا عليه جروا برجله، فصاحت نائلة وبناته، وجاء التجيبي مخترطًا سيفه ليضعه في بطنه فوقته نائلة، فقطع يدها، واتكأ بالسيف عليه في صدره، وقتل عثمان رضي الله عنه) [3].

---

(1) تاريخ الطبري، الطبعة الأولى، القسم الأول ٦/ ٢٩٤٢، ٣٠١٨، ٣٠٢٠.

(2) تاريخ الطبري، الطبعة الأولى، القسم الأول ٦/ ٢٩٤٢، ٣٠١٨، ٣٠٢٠.

(3) تاريخ الطبري، الطبعة الأولى، القسم الأول ٦/ ٢٩٤٢، ٣٠١٨، ٣٠٢٠.

(وأما عمرو بن الحمق فوثب على صدره وبه رمق، فطعنه تسع طعنات قال: فأما ثلاث منها فإني طعنتهن إياه لله تعالى ، وأما ست فلما كان في صدري عليه.

وأرادوا قطع رأسه، فوقعت نائلة عليه وأم البنين، فصاحتا وضربتا الوجوه، فقال ابن عديس: اتركوه، وأقبل عمير بن ضابئ فوثب عليه، فكسر ضلعًا من أضلاعه)[1].

فبربك: أهذا خلاف بين مسلمين أم مجزرة شيوعية كمجزرة الموصل؟

هكذا أعداء هذا الإسلام دومًا.

يريدون قطع رأس الجماعة، وكسر أضلاع تنظيماتها، والمبرر: (لله) كما قال ابن الحمق!!

وبصيحة (لله) هذه ضاع ألوف من شباب الدعوة بالأمس القريب، وثبطت جموع، وكشفت أسرار، وملئت سجون.

ولو صدقوا لقالوا مثل ما قال ابن الحمق مستدركا: (ست لما في الصدر)!!

وأراد أهل عثمان دفنه.

(فلما سمعوا بذلك قعدوا له في الطريق بالحجارة، وخرج به ناس يسير من أهله وهم يريدون به حائطًا بالمدينة يقال له: حش كوكب، كانت اليهود تدفن فيه موتاهم، فلما خرج به على الناس رجموا سريره، وهموا بطرحه).

ذلك أنهم منعوا دفعنه بالبقيع وقالوا:

---

(1) الكامل لابن الأثير ٣/ ١٧٩.

(والله لا يدفن في مقابر المسلمين أبدًا)[1].

وقتل مع عثمان عبدان دافعا عنه، (فجر بأرجلهما، فرمي بهما على البلاط، فأكلتهما الكلاب)[2].

فانظر كيف تطور الاعتراض على الاجتهادات إلى قتل، وكسر ضلوع، وتمثيل وطعنات ودفن في مقابر اليهود، وتقديم جثث أعزها الله وكرمها طعامًا للكلاب!!

فهل يأمن المخلصون إذا لم يسلكوا سبيل الاعتراض الصحيح اليوم ومالوا إلى تشهير وافتتان أن تنتهي اعتراضاتهم إلى أضرار كبيرة؟

لا والله، فإن من شأن الفتن دوما أنها تتطور وتفلت السيطرة عليها، والفطن من وعظه التاريخ، وسارع إلى تناوش قبس من:

النور الثامن بعد العشرين، المتوقد بجمال: الإعراض عن الجاهلين

فإن الخارجين يديمون الاحتكاك بأفراد الجماعة كي يبقوا مادة لتماسكهم، ولابد من تفويت مقصدهم بالسكوت وعدم الالتفات إلى تحرشهم، مع نظرة رأفة ورحمة لهم تقود لسان أحدنا إلى أن يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

فمن أخلاقه ﷺ أنه كان لا يغضب لنفسه قط، وهذا يوجب على الداعية إن سمع كلمة تعريض به أن لا ينفعل، إن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، وقد قال الله تعالى عن نفسه: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦]، والإعراض عن الجاهلين معنى من معاني الصلاح قطعًا.

---

(١) (٢) تاريخ الطبري ٦/ ٣٠٤٦ـ٣٠٤٩.

وليعلم الداعية أن مدافعة الخصوم لا تكون أشد من مدافعة الأعداء في ساحات القتال، والمدافعة في ساحة القتال لا تكون بالالتحام دائمًا ؛ وإنما هناك الاختفاء والسكوت أيضًا، ولما نادى أبو سفيان المسلمين في معركة أحد بأعلى صوته: هل فيكم محمد؟ هل فيكم أبو بكر؟ هل فيكم عمر؟ لم يجبه أحد، مع أن الجواب كان أبعث للغيظ في قلب أبي سفيان من السكوت، ولكن الموقف كان يستلزم السكوت.

فإذا حصل مثل هذا في سوح القتال فحصوله في الحياة اليومية أولى.

إننا أصحاب دعوة أيها الأخوة، ولا يجوز أن ننزل عن مستوى دعوتنا الرفيع إلى حضيض التراشق برديء الكلام، ولا يعذرنا الله إذا تركنا هذا المستوى العالي الذي أكرمنا الله به بحجة أن غيرنا جرنا إليه، إذ المؤمن لا يترك درجة من درجات إيمانه باستغواء من شيطان أو بجهالة من جاهل، بل من الواجب أن نقول: اللهم اغفر لنا وله، واهدنا وإياه، ولا تجعل غضبنا لأنفسنا، ولا في عملنا شيئا من أهوائنا.

فإذا قلنا ذلك فإن سكينة غامرة ستتنزل على قلوبنا تزيد متعتنا بأضواء:

النور التاسع بعد العشرين، حين يكشف لنا سبيل: كبت الإشاعة

بعدما عاب الله إذاعتها في قوله:

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:٨٣].

(والصورة التي يرسمها هذا النص، هي صورة جماعة في المعسكر

الإسلامي، لم تألف نفوسهم النظام، ولم يدركوا قيمة الإشاعة في خلخلة المعسكر، وفي النتائج التي تترتب عليها، وقد تكون قاصمة، لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث، ولم يدركوا جدية الموقف، وأن كلمة عابرة وفلتة لسان قد تجر من العواقب على الشخص ذاته، وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له ببال، وما لا يتدارك بعد وقوعه بحال؟ أو ربما لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيقي الكامل لهذا المعسكر.

وهكذا لا يعنيهم ما يقع له من جراء أخذ كل شائعة والجري بها هنا وهناك، وإذاعتها، حين يتلقاها لسان عن لسان، سواء كانت إشاعة أمن أو إشاعة خوف، فكلتاهما قد يكون لإشاعتها خطورة مدمرة، فإن إشاعة أمر الأمن مثلا في معسكر متأهب مستيقظ متوقع لحركة من العدو... إشاعة أمر الأمن في مثل هذا المعسكر تحدث نوعا من التراخي مهما تكن الأوامر باليقظة، لأن اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الأوامر، وفي ذلك التراخي قد تكون القاضية.

كذلك إشاعة أمر الخوف في معسكر مطمئن لقوته، ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة، قد تحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباكًا، وحركات لا ضرورة لها لاتقاء مظان الخوف، وقد تكون كذلك القضية.

وعلى أية حال فهي سمة المعسكر الذي لم يكتمل نظامه، أو لم يكتمل ولاؤه لقيادته، أو هما معًا، ويبدو أن هذه السمة وتلك كانتا واقعتين في المجتمع المسلم حينذاك، باحتوائه طوائف مختلفة المستويات في الإيمان، ومختلفة المستويات في الإدراك، ومختلفة المستويات في الولاء، وهذه الخلخلة هي التي كان يعالجها القرآن بمنهجه الرباني.

والقرآن يدل الجماعة المسلمة على الطريق الصحيح :

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣].

فمهمة الجندي الطيب في الجيش المسلم، الذي يقوده أمير مؤمن – بشرط الإيمان ذاك وحده– حين يبلغ إلى أذنيه خبر، أن يسارع فيخبر به نبيه أو أميره، لا أن ينقله ويذيعه بين زملائه، أو بين من لا شأن لهم به، لأن قيادته المؤمنة هي التي تملك استنباط الحقيقة، كما تملك تقدير المصلحة في إذاعة الخبر –حتى بعد ثبوته– أو عدم إذاعته) [1].

فمن أرته هذه الأنوار طريقة فهو الموفق، وإلا أوقدنا له:

النور الثلاثين كمحاولة أخيرة:

وهو نور تحذيري أحمر اللون ينذر بالخطر البالغ، ويشير إلى وجوب:

خوف تنكر الأرض والمؤمنين للخوالف

فكل امرئ لاقى الذي كان قدّمَا، وكل امرئ يجزى بما كان ساعيا، وجل حصاد المرء من حيث يزرع.

فمن خالف الجماعة فإنه لن يجد إلا وحشة، حتى قال كعب التائب رضي الله عنه: (تنكرت لي الأرض فما هي بالتي أعرف).

(فتتنكر له نفسه حتى ما كأنه هو، ولا كأن أهله وأصحابه ومن يشفق عليه بالذين يعرفهم، وهذا سر من الله لا يخفى إلا على من هو ميت القلب) [2].

(والخوف والهم: مع الريبة، والأمن والسرور: مع البراءة من الذنب.

---

(1) في ظلال القرآن ٥/ ١٧١.

(2) زاد المعاد ٣/ ٢٠.

فما في الأرض أشجع من بريء ولا في الأرض أخوف من مريب ، وهـذا القدر قد ينتفع به المؤمن البصير إذا ابتلي به ثم راجع)[1].

وإنه لما يحرص عليه المؤمن العاقل أن يكثر من يحبه من المؤمنين، ويـديم محبتهم له حتى ساعة موته، ليصلوا على جنازته فيقولوا: اللهـم اغفـر لحينـا وميتنا، اللهم اغفر لنا وله.

وهذا كما حرص عليه كعب بن مالك التائب رضي الله عنه ، فإنه وصف نفسيته أيام المقاطعة فقال :

(ما من شيء أهم إليَّ من أن أموت فلا يصلي عليَّ النبـي ﷺ ، أو يمـوت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحـد مـنهم، ولا يصلي عليَّ) [2].

فالذي لم تعجبه قواعدنا وموازيننا وأنوارنا السابقة، ويتأول لخلافه مـع ذلك بعض التأويل، مدعو إلى أن يرهب مقاطعتنا له، ألا يمـوت مـن غـير مستغفر له من الدعاة.

ذلك أن الفقهاء أجازوا لنا ترك السلام على مقـارف الـذنب، وتـرك رد السلام عليه، تأديبا له، وخلع البيعة، ونكث العهد، من أكبر الذنوب.

نعم، يجب أن نوقع هذه العقوبة بحذر بالغ، وبأمر الأمير لا بمبادرة من الأتباع، ولكن الفقه أجازها اسـتثناء مـن الأمـر بإفـشاء الـسلام، لتعلقهـا بمعنى الردع والتأديب.

قال أبو داود :

---

(1) المصدر السابق.

(2) صحيح البخاري ٦/ ٨٨.

(إذا كانت الهجرة لله فليس من هذا شيء، وإن عمر بن عبد العزيز غطى وجهه عن رجل).

قال: **(وابن عمر هجر ابنا له إلى أن مات)**[1].

وقد خصص البخاري أكثر من باب في صحيحه لبيان جواز ذلك فقال:

(باب: هل للإمام أن يمنع المجرمين وأهل المعصية من الكلام معه والزيارة ونحوه؟)[2].

ثم أورد حديث الثلاثة الذين خلفوا كجواب على سؤاله، تدليلا على الجواز:

وقال أيضًا:

(باب ما يجوز من الهجران لمن عصى)[3].

وأورد حديث الثلاثة أيضًا:

وعلى ذلك مضى فعل العلماء، وعلى الأخص هجرهم لمن يبتدع.

بل كانوا يهجرون أشقاءهم، كما حدث للمحدث الصدوق الثقة أحمد ابن حرب الموصلي، إذ:

(هجره أخوه علي لمسألة اللفظ)[4].

أي لقوله: لفظي بالقرآن مخلوق، مع أن قوله هذا تحتمله مذاهب أهل السنة، ولكن جهره به في وقت شاعت فيه بدعة خلق القرآن أجفل أخاه فأنكر عليه، وهجره.

---

(1) سنن أبي داود ٢/ ٥٧٧.

(2) صحيح البخاري ٩/ ١٠٢.

(٣) صحيح البخاري ٨/ ٢٦.

(٤) تهذيب التهذيب ١/ ٢٣، ١٦٧.

وكان إبراهيم بن المنذر الحزامي المدني من ثقـات العلـماء، ومـن شـيوخ البخاري وغيره، ولكنه أثناء محنة خلق القرآن لان وخلط، فذمـه أحمـد، ولم يرد عليه السلام[1].

ومن مثل هذا استل ابن تيمية مشروعية الهجر للمخطـئ وإن كـان مـن أهل الفضل في جوانب أخرى[2].

وكل هذا مما فصله الحـافظ ابـن حجـر بتفـصيل جيـد، فقـال: (ذهـب الجمهور إلى أنه لا يسلم على الفاسق ولا المبتدع).

قال: (**وقال المهلب –أحـد شراح البخـاري-: تـرك الـسلام عـلى أهـل المعاصي سنة ماضية، وبه قال كثير من أهل العلم في أهل البدع، وخـالف في ذلك جماعة**).

(**وألحق بعض الحنفية بأهل المعاصي من يتعاطى خوارم المـروءة، ككثـرة المزاح واللهو وفحش القـول والجلـوس في الأسـواق لرؤيـة مـن يمـر مـن النساء، ونحو ذلك. وحكى ابن رشد قال: قال مالك: لا يـسلم عـلى أهـل الأهواء، قال ابن دقيق العيد: ويكون ذلك على سبيل التأديب لهم، والتـبري منهم**).

ثم قال: (**وقال النووي: وأما المبتدع ومن اقترف ذنبا عظيما ولم يتب منـه فلا يُسلَّم عليهم ولا يُرد عليهم السلام ، كما قـال جماعـة مـن أهـل العلـم، واحتج البخاري لذلك بقصة كعب بن مالك**).

قال : (**وهو مما يُخصُّ به عموم الأمر بإفشاء السلام عند الجمهور**)[3].

---

(1) تهذيب التهذيب ١/ ٢٣ ، ١٦٧.

(2) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٢٧٧.

(3) فتح الباري،طبعةالحلبي١٣/ ٢٧٨.

وليس ترك الجماعة والنزاع معها وعصيان أوامرها بأقل من هذه الذنوب التي ذكرها جمهور الفقهاء، والتحلل من الوفاء ببيعة واجبة من أكبر خوارم المروءة فوق كونه حرامًا.

فانظر لنفسك أيها المخالف.

إن كنت تتأول لنفسك وتأبى التغافر والالتفات إلى عيب النفس، وتلزم النجوى، والجدل، ولا تقيس حالك على التعرب بعد الهجرة، ولا تريد الاتعاظ بالتاريخ، ولا تتقي طبائع آخر الزمان، فهلا ترفق بحالك إزاء مؤمنين سوف لا يسلمون عليك ولا يستغفرون على جنازتك يوم موتك؟

فاحفظ مصلحتك، وتواضع، وامش مع القافلة، نحفظ لك حقك ما دمت حيا، ونوصلك إلى قبرك باستغفار، ولا ندع النائحة المستأجرة تنفرد بنعيك!

* * *